ولقد درج العلماء –وحتى عهد قريب – في دراساتهم للعلاقة بين اللغة والثقافة على الاكتفاء بتبين العلاقة الخارجية الواضحة بين مفردات اللغة ومحتوى الثقافة، كما كانوا يحرصون على ان يبينوا أن هذه المفردات تعكس الى حد كبير اعتمادات المجتمع والجواب التي يركز عليها والتي تشغل بال اعضاءه مثل التكنولوجيا او التنظيم الاجتماعي أو الدين أو الروابط القرابية وما الى ذلك من المسائل التي تحتل مكانا مركزيا في بناء المجمع و تدور حوله بالتالي أوجه النشاط الاجتماعي المختلفة، فالشعوب التي تعيش على الجمع والقنص مثلا توجد عندها قوائم تفصيلية طويلة بأسماء الحيوانات والنباتات والملامح الطبوغرافية للبيئة التي يعيشون فيها، بينما نجد الجماعات التي تهتم بالقرابة مثل الأستراليين الأصليين عندهم كثير من مصطلحات القرابة المعقدة التي تعكس في مجموعها العلاقات القرابية المتشابكة التي يدخل فيها أعضاء القبيلة الواحدة من ناحية والقبائل والعشائر المختلفة بعهم مع بعض من الناحية الأخرى. وكل هذا يوضح ثمة صلة قوية بين مفردات اللغة والكثير من جوانب الثقافة غير اللغوية[1]

---

[1] من ذلك مثلا ما يذكره هامر بورجشتال Hammer Purgstall في احدي مقالاته من أن هناك حوالي خمسة الالف الى ستة الاف اسم لوصف الابل عند العرب، وهي الفاظ تعطي الكثير من التفاصيل عن الشكل والحجم واللون والسن وطريقة السير وما الى ذلك ويلاحظ هامر بورجشتال أن هذه التصنيفات أبعد ما تكون الى التصنيف العلمي او المنهجي، ولكنها مع ذلك تخدم مع ذلك أهدافا واضحة ومهمة للمجتمع البدوي العربي. وفي الكثير من لغات الهنود الحمر توجد أسماء والفاظ كثيرة ومختلفة عن فعل واحد معين مقل المشي او الضرب ولكنها كلها توضح واحدة بجانب الأخرى وبحيث لا يمكن أن تحل كلمة محل غيرها، فالضرب بالكف غير الضرب بقبضة اليد غير الضرب بسلاح او بسوط او بقضيب وما الى ذلك، كذلك نجد عند بعض الهنود الحمر وسط البرازيل – على ما يقول شتايتن Karl von den Steinen ان لكل نوع من أنواع الببغاوات واشجار النخيل اسما خاصا به ولكن لا يوجد اسم جنس للببغاء او النخل، فهم يهتمون بالتفاصيل بحيث لم يعودوا يهتمون بالخصائص المشتركة بينه جميعا، وعلى أي حال فان التصنيفات والتقسيمات تمليها على الناس الحاجات الخاصة التي تختلف باختلاف الظروف الاجتماعية

ثمة سلة قوية بين مفردات اللغة وكثير من جوانب الثقافة في اللغوية. ولكن الشيء الذي لم يهتم به معظم هؤلاء العلماء اهتماما كبيرا على الأقل هو أن اللغة قد تتدخل في تحديد وتركيب انماط الفكر في المجتمع الذي تسود فيه سواء أدرك الناس ذلك أم

والثقافية. ففي بعض الحضارات البدائية على العموم ينصرف معظم الاهتمام الى النواحي المادية المشخصة والملموسة والجزئية. وليس من شك في ان اللغة والكلام يتواءمان دائما مع اشكال الحياة الإنسانية، والاهتمام بالكليات امر غير ميسور وغير ضروري بالنسبة للقبيلة الهندية لأنه يكفيها ان تميز بين الاشياء عن طريق الخصائص الواضحة الملموسة والظاهرة للعيان، بل ان ذلك أكثر أهمية بالنسبة وفي كثير من اللغات لا يمكن معاملة الشيء المستدير مثل الشيء المربع او المستطيل لانها كلها تنتمي الى أوضاع مختلفة تتميز بوسائل لغوية خاصة. وفي الكثير من اللغات توجد كلمات لكل درجات اللون الواحد بينما لا يوجد اسم عام لذلك اللون كالأزرق او الأخضر في عمومه وما الى ذلك. بل ان هذا ينطبق نفسه حتى على الأعداد بحيث تستخدم اعداد مختلفة لكل نوع من أنواع الأشياء، وعلى ذلك فان الوصول الى الأفكار او المقولات الكلية يبدو انه تم بطريقة بطيئة جدا اثناء تطور اللغة والكلام، وليس من شك في أن كل ما تقدم في هذا المجال يؤدي –على ما يقول كاسيرر– الى توجيه افضل وتنظيم احسن لعالمنا المدرك. انظر في ذلك .Cassirer op. cit. pp. 174–76

ومن أفضل الأمثلة عل اهتمام الشعوب البسيطة بالجزئيات دون الكليات وبالتفرقة الدقيقة بين الأشياء التي من نوع واحد على أساس الاختلافات الظاهرية بين صفاتها، يذكره علم الانثروبولوجيا البريطاني ايفانس بريتشارد عن التمييزيات الدقيقة الكثيرة التي يقيمها مجتمع النوير في السودان الجنوبي بين الماشية(الابقار) على أساس اللون والسن وشكل القرون وما الى ذلك، انظر:

Evans–Pritchard, E.E.; The Nuer, Oxford University Press, 1940.

وراجع في ذلك على العموم

The Relation of Language to Culture" in Krober (ed.): Anthropology Today, Chicago U.P. 1953, pp. 556–7

لم يدركوه، فكما أن الفنان وعالم النبات قد ينظران الى الأشجار والنباتات والزهور من ناحيتين مختلفتين كذلك الحال بالنسبة للجماعات التي تتكلم لغات مختلفة تنظر الى العالم نظرات مختلفة وتدركه بطرق مختلفة ايضا[٢]. وهذا معناه أن الاكتفاء بدراسة العلاقة الواضحة بين اللغة والمحتوى الثقافي لا تعني شيئا اكثر من ان اللغة لها أساس ثقافي او حضاري وانه لن يمكن التالي تحديد مفردات اللغة تحديدا دقيقا الا بمعرفة بقية مظاهر الثقافة، وهذا هو ما يقصده علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع حين يذكرون ان اللغة شيء أكبر مما نجده في القواميس والمعاجم وان دراستها دراسة عميقة تحتاج الى التعرف على الروابط اللغوية بين أنماط اللغة وانماط الثقافة والحضارة، ولكن الجديد في الأمر هو ما يحاول الأن بعض العلماء من اثبات أن الشعوب التي تتكلم لغات مختلفة تعيش في (عوالم من الواقع) مختلفة. وان اللغات التي يتكلمونها تؤثر بدرجة كبيرة في مدركاتهم الحسية وفي أنماط تفكيرهم، وانها بذلك وحسب تعبير سابير Sapir – تكون هي العامل الأساسي في توجيه الحقيقية الاجتماعية أو الواقع الاجتماعي social reality الذي يعيش فيه الناس الذين يتكلمون تلك اللغات– فالناس لا يعيشون في العالم الموضوعي الخارجي وحده كما انهم لا يعيشون في عالم النشاط الاجتماعي فقط كما يظن الكثيرون من العلماء وانما هم خاضعون الى حد كبير لرحمة اللغة التي يتخذونها أداة وواسطة للتعبير. (فعالم الواقع او الحقيقة برتكز الى حد كبير بطريقة لا شعورية على العادات اللغوية للجماعة ولا توجد لغتان متشابهتان تشابها كافيا بحيث تعتبران ممثلتين لنفس الحقيقة أو الواقع الاجتماعي. فالعوالم التي تعيش فيها المجتمعات المختلفة عوالم متمايزة اذا وليست عالما واحدا الصقت عليه اسماء وعناوين مختلفة)[٣].

---

[2] Reacock, L. & Kirsch, A.T.; the Human Direction, Appleton–Century Croft, N.Y. 1970 p, 16.

[3] Sapir, language, op. cit. p 162.

وانظر كذلك مقالة هويجر عن (علاقة اللغة بالثقافة) في كتاب كروبير Anthropology today (المرجع السابق ذكره، صفحة ٥٥٧)